وهم الغرب وجذور الأنثروبولوجيا الإسلامية

أ. مهدية بن عيسى
جامعة تلمسان

الملخص :

الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان في مجتمع من المجتمعات ،ويدّعي علماء الغرب أنّه علم غربي أصيل ولكن هذا وهمهم ذلك أنّهم لم يعرفوه إلا منذ قرنين من الزمن .

والمتتبّع لتاريخ الإسلام يجد أنّ هذا العلم نشأ على يد الرحالة العرب القدامى حينما جابوا بقاع العالم ودرسوا مميزات كل بلد أقاموا فيه : عادات شعوبه ،لغاتهم، ثقافتهم ...فسجلوا كل شيء عن هذه الشعوب المختلفة حسب منهج الأنثروبولوجيا الحديثة ،هنا يمكننا القول أنّ بدايات هذا العلم عربية بحتة و للغرب السبق بالتسمية فقط.

لا تزال الرحلات العربية تجذب اهتمام مؤرخي الأدب أكثر مما تجذب مؤرخي الأنثروبولوجيا.

ويعود ذلك إلى ضعف الدرس الأنثروبولوجي العربي، بحكم أن الأنثروبولوجيا لم تتشكل كاختصاصٍ علميٍ محكومٍ بمعاييره الأوروبية إلا في سياق فتح إرادة المعرفة والقوة الغربية للعالم ومحاولة وصفه ومعرفته واستبنائه في شكلٍ يتكيف معها ويخضع إلى غاياتها. وفي ذلك تتداخل الأنثروبولوجيا تداخلاً وثيقاً مع الاستشراق. وبكلامٍ أدق تداخل الرؤية التنميطية للآخر غير الأوروبي مع الرؤية الاستشراقية الكلاسيكية. غير أن تاريخ الأنثروبولوجيا عرف بحكم الميراث النقدي للغرب نفسه قطيعةً مع ميراثه التوظيفي الاستعماري. وما يهم هنا في مجال العلاقة ما بين الأنثروبولوجيا والرحلات هو مجال

رؤية الآخر. ومن هنا فإن تاريخ الأنثروبولوجيا يضع الرحلات في إطار البواكير الأنثروبولوجية أو أنثروبولوجيا ما قبل علم الأنثروبولوجيا.

1- مفهوم الأنثروبولوجيا:

تعرّف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا ... أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته،أو منعزل عن أبناء جنسه ،إنّما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه،يحيا في مجتمع معيّن له مميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين "[1].

و الأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده ،البيوفيزيائية [2] والاجتماعية والثقافية علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض،مثل علم التشريح،وتاريخ تطوّر الجنس البشري، والجماعات العرقية ،وعلوم دراسة النظم الاجتماعية من سياسيّة واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية،وما إليها .فهو علم يدرس الإنسان و أوجه الشبه و الاختلاف بينه وبين الكائنات الحيّة الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بينه وبين أخيه الإنسان من جهة أخرى.

وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا تهتمّ الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنّما تهتمّ بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية .[3]

أما فيما يخص التسمية فقد أثبتت ترجمة اسم هذا العلم إلى اللغة العربية عدم جدواها واتضح أنها غير علمية،لأن الترجمة لا تقدم تسمية كاشفة دالة، فهناك علوم أخرى كثيرة تدرس الإنسان، كالتاريخ، وعلم الاجتماع ،وعلم النفس،و البيولوجيا الإنسانية، وغيرها من العلوم الأخرى،ولهذا السبب العملي آثر علماء الأنثروبولوجيا العرب الإبقاء على تسمية العلم كما هو دون ترجمة .

2- أهداف دراسة الأنثروبولوجيا :

استناداً إلى مفهوم الأنثروبولوجيا وطبيعتها، فإنّ دراستها تحقّق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور التالية :

1- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة، وتسجيل كلّ ما يقوم به أفرادها من سلوكات في تعاملهم، في الحياة اليوميّة .

2- تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوّري الحضاري العام للإنسان : (بدائي- زراعي- صناعي – معرفي – تكنولوجي)

3- تحديد أصول التغيّر الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغيّر وعملياته بدقّة علمية .. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة .

4- استنتاج المؤشّرات والتوقعّات لاتّجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية / الحضارية التي تتمّم دراستها، وبالتصوّر بالتالي لإمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة.[4]

3- جذور الأنثروبولوجيا :

تعود دراسات علم الإنسان إلى المؤرخ الإغريقي *هيرودوتس* الذي وصف في بحوثه عادات البربر وتقاليدهم, واستخلص من ذلك الخصائص التي تتسم بها شعوب الحضارات القديمة, ثمّ أعقبه *تاسيتوس* الذي درس عادات وتقاليد وأعراف الشعوب الجرمانية [5] ومن العلماء العرب برز العالم *ابن خلدون* في دراساته الأنثروبولوجية والاجتماعية من خلال أعماله في التاريخ وعلم العمران ودراساته المفصلة للبدو وعاداتهم وأعرافهم وقيمهم وعصبيتهم وفي وصف الإنسان الذي درسه بدراساته لأحوال الأمم والشعوب والانتقال الحضاري وكان ذلك من أبرز ما سجله الباحثون الاجتماعيون منذ القرن الرابع عشر إلى يومنا هذا[6].

تقول الدراسات أن علم الإنسان أو علم الأنثروبولوجيا الذي يدعي الغرب أنه علم غربي لم يعرف إلا منذ قرنين من الزمان، إنما هو علم عربي إسلامي أصيل، لأن الرواد من العلماء المسلمين الرحالة الذين جابوا الأقطار المختلفة كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا. وقد قام هؤلاء العلماء الرحالة برحلاتهم اهتداء بقول الله تعالى :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [7] . وقول الله تعالى :﴿ ومَن يُهَاجِر فِي سَبِيل الله يَجِد فِي الأَرض مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [8] فهؤلاء العلماء طافوا العالم ودرسوه جيدا وسجلوا كل شيء عن شعوبه المختلفة حسب مفردات منهج الأنثروبولوجيا الحديث.

4- إنتاج الرحالة المسلمين العرب كمادة خام للبحث الأنثروبولوجي :

من المؤكد أنّ وصول الرحالة المسلمين إلى الشرق الأقصى وبخاصة إلى الهند والصين وبإمكانيات متواضعة ،يعتبر فتحا حضاريا كبيرا يمكن أن نلتمس جوانبه المضيئة في الكثير من مدوناتهم التي خلفوها في هذا المجال .فقد دوّنوا الكثير من الملاحظات المفيدة من النّاحية العلمية ،أما الرحالة الذين ترتبط أسماؤهم بالمنجزات في ميادين الجغرافيا وعلم الأنواء[9]،فقد جاؤوا منذ النصف الثاني للقرن الثالث الهجري وخلال القرن الرابع و هم من أكمل نظريات ومعارف اليونان والرومان وزودوا هذه العلوم بتقارير واسعة مفصّلة ذات طبيعة موسوعية ،فكثيرا من منجزات المسلمين في حقول الحضارة و الثقافة والآداب والفنون ذات علاقة مباشرة بحمية المسلمين في نشر دينهم في كل بقعة يستطيعون الوصول إليها باعتبار ذلك جزءا من رسالة الإسلام في أن يغدوا دينا للبشرية جمعاء،كما ارتبط ذلك بهدف ثان هو النشاط التجاري والاقتصادي الذي صاحب توسع الدولة الإسلامية و امتدادها إلى أقاليم شاسعة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا [10] .

ونجد في المؤلفات الكثيرة الخاصة بالرحلات الجغرافية وصفا مسهبا للطريق الذي سلكه مؤلفو هذه التصانيف برا وبحرا وللمدن والأقاليم والجزر التي مروا بها وللأجناس البشرية التي تعرفوا عليها وللعادات الاجتماعية والعقائد و الأطعمة و الأشربة، والألبسة ولطراز البناء والعمران ، وللنظم الاقتصادية وطرق التعامل والتبادل التجاري ، وباختصار لكل صغيرة وكبيرة في تلك البلدان التي رحلوا إليها . لقد كانت تلك الرحلات مبنية أساسا على الدراسة الوصفية أي المونوغرافية التي تعتبر جزء لا يتجزأ من الأنثروبولوجية ،وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن الاكتشاف المبكر للأنثروبولوجيا من قبل العرب والمسلمين .

5- مشاهير الرحالة المسلمين ومؤلّفاتهم :

اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم .

ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، ككتاب البلدان لليعقوبي 298هـ إذ يعد من أهم المخطوطات التي لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر والمخطوط موجود بميونخ بألمانيا.

كما نجد كتاب "صورة الأرض" للخوارزمي (ت221هـ) حيث تكثر فيه الجداول الفلكية التي رتّب فيها أسماء الظواهر البشرية والطبيعية المختلفة مثل المدن والجبال والبحار والجزر والأنهار، واعتمد الخوارزمي على ظاهرة فلكية مهمة هي درجات العرض في تقسيمه للعالم إلى سبعة أقاليم، وبرع هذا العالم الجليل في علم الجبر والفلك والجغرافيا ،وله كتاب شهير هو "كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة"[11].

ولعل أهم معجم جغرافي ذاع صيته هو معجم البلدان لياقوت الحموي (574هـ-626هـ) فقد دوّن به أسماء البلدان وما سمعه ورآه عنها محققا أسماءها ذاكرا لموقعها الدقيق مراعيا الدقة والتحقيق

ذاكرا خطوط الطول والعرض وموضحا لتاريخها وحكاياتها وأخبارها[12].

وكذلك برع العرب في إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل " مسالك الأمصار " لابن فضل الله العمري ، و " نهاية الأرب في فنون العرب " للنويري .

وإلى جانب اهتمّام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران ، فقد تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصيّة، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية .

وهناك من تخصّص في وصف إقليم واحد مثل:البيروني (362 – 440 هـ) الذي وضع كتاباً عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " . وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية. واهتمّ أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وأبرز البيروني في هذا الكتاب، حقيقة أنّ الدين يؤدّي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات [13].

كما كانت لرحلات ابن بطوطة (703هـ- 779هـ) وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم. فمّما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان : " فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرّضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض والأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة. وإنّما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقّه[14].

أمّا كتاب ابن خلدون (ت808هـ) " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " المعروف ب "المقدمة "فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدّمته الرئيسة وعنوانها : " في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب ". وتعتبر هذه المقدّمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيّما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كلّ ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكّلت موضوعات هذه المقدّمة في العصر الحديث اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن أهمّ الموضوعات التي تناولها في مقدّمته، والتي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. فقد ردّ ابن خلدون – استناداً إلى تلك الدعامة – اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسيّة وصفاتهم الجسمية والخَلقية، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية [15].

كما تناول في مقدّمته أيضاً، مسألة قيام الدول وتطوّرها وأحوالها، وبلور نظرية (دورة العمران) بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي.

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب – على حدّ سواء – في العصور الوسطى .. حيث اعتبر ابن خلدون أن التطوّر هو سنّة الحياة الاجتماعية، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية.

يقول في ذلك : إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، وإنّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول[16]. فعمر الدول عند

ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثمّ تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال .

كما أرسى الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمرّ بها، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا. ولذلك، يرى بعض الكتّاب والمؤرّخين، أنّ ابن خلدون يعتبر المؤسّس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يرى بعضهم الآخر، ولا سيّما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون، في مقدّمة ابن خلدون بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها . وفي أمريكا، أشار(جون هونجيمان) أيضاً في كتابه " تاريخ الفكر الأنثروبولوجي " إلى أنّ ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية (مارفين هاريس)عن " المادية الثقافية – Cultural Materialism " ونجد أنّ هاريس ذاته، يذكر أنّ ابن خلدون ومن قبله الإدريسي، قدّما أفكاراً ومواد ساعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية، التي سادت إبّان القرن الثامن عشر[17] .

واستناداً إلى ما تقدّم نقول : إنّ الفلاسفة والمفكّرين العرب أسهموا بفاعلية في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيّما التنوّع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى.

6– خاتمة :

لقد أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال القادمة ،إذ أسهمت كتاباتهم لأدب الرحلات في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية ، وظروفها المعيشية وألقوا الضوء على تاريخ هذه البلاد وأفكار سكّانها وعادات وتقاليد قد تختلف وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة ،فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى ، وإثارة الاهتمام

بها وتشجيع طلبة العلم والعلماء على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها ،وهذا إن دل على شيء فهو يدل على ان الدعائم الاولى للأنثروبولوجيا أصلها عربي أو بالأحرى أسلامي من خلال ما قام به هؤلاء الرحالة المسلمين من رحلات استكشافية وعلمية في نفس الوقت إلا أن الغربيين سبقوهم بتأسيس علم قائم بذاته له أسس علمية ومنهجية .

المصادر و المراجع:

1-المدخل إلى الأنثروبولوجيا،شاكر مصطفى سليم ،مطبعة العاني ،بغداد 1975،ص: 7.

2- الفيزياء الحيوية هي دراسة العمليات البيولوجية عبر علم الفيزياء وذلك بتطبيق النظريات والمناهج التقليدية المستخدمة في علوم الفيزياء.

3- ينظر: مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا ،عيسى الشّماس ،منشورات إتحاد الكتاب العرب ،ص:14.

4- ينظر: دراسة الإنسان ، لينتون رالف، ترجمة :عبد المالك الناشف ،المكتبة العصرية،بيرت،دط،دت ،ص:15

5- ينظر: الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات، محمد صفوح الأخرس ، وزارة الثقافة السورية ،2001،ص :23.

6- ينظر : علم الاجتماع السياسي، صادق الأسود، مطبعة الإرشاد، بغداد 1973، ص: 12.

7- سورة العنكبوت ،الآية:20.

8- سورة النساء ، الآية 100.

9- علم الأنواء هو علم الظواهر الجوية ، يشتمل على دراسة الطقس والمناخ كما يدرس علم الفلك .

10- ينظر :http://afaksocio.ahlamontada.com

11- ينظر:معجم الأدباء،ياقوت الحموي ،دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان دط،دت:16 / 253.

12- ينظر:معجم البلدان ،ياقوت الحموي،دار صادربيروت ،لبنان،ط2 ،1995م،22/1.

13- ينظر:قصة الأنثروبولوجيا ،فصول في تاريخ الإنسان ،حسين فهيم، عالم المعرفة، الكويت،دط،1986 ،ص:54.

14- ينظر:رحلة ابن بطوطة،أبو عبد الله ابن بطوطة، دار التراث بيروت ،دط،1968م، ص:672.

15- ينظر:المقدمة، عبد الرحمان ابن خلدون،تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ،دط،1966م،1/ 291.

16- ينظر :نفسه:1/ 252.

17- ينظر : مدخل الى علم الانثروبولوجيا ،ص:26 .